أفكار متقاطعة

نيتشه ناقداً الميتافيزيك والأخلاق ونازعاً عن العالم صفات الكمال

■ جورج كعدي

أتابع هنا قراءة شائقة، فائقة الإمتاع فكريّاً، بدأتها السبت الفائت حول مقولة «موت الإنسان» التي درسها الدكتور عبد الرزّاق الدَوَاي في الخطاب الفلسفيّ المعاصر، من هايدغر إلى فوكو، مع عودة مرجعيّة وإسناديّة إلى خطاب فلسفيّ سابق متّصل بالنزعة الإنسانيّة Humanisme والأخلاق والميتافيزيك، ربطاً ومقارنة وبحثاً.

يرى الأكاديميّ المغربيّ أنّ النقد النيتشويّ للنزعة الإنسانيّة ينهض على فكرة أنّها ميتافيزيكية، وأن الميتافيزيك (أو الماوراء) هو بدوره عبارة عن أخلاقٍ ويصطنع قيماً «زائفة» للواقع، متعالية عليه، قيماً مثاليّة تهدف إلى إخفاء مظاهر حقيقة الوجود القاسية وطمسها، إذ تذهل الإنسان وتفزعه وتتحطّم عندها أحلامه وأوهامه. ويمكن القول عن هذا النقد إنّه يسير في الاتجاه المعاكس تماماً للتقليد الفلسفيّ الكانطيّ. ففيما دعا كانط إلى ضرورة اعتبار أفكار الميتافيزيك مجرّد قيم لتأسيس الأخلاق ومسلّمات للفكر العلميّ، يرى نيتشه أنّ النقد الجذريّ للفكر الميتافيزيكيّ برمّته لا يتحقّق إلاّ بفضح حقيقته التي يتكمن في أنّه مجرّد أخلاق. ينتقد نيتشه الميتافيزيك ومفاهيمه الأساسيّة من زاوية أنّه تزييف صارخ ومتعمّد للوجود، فهو يحبك تصوّرات زائفة عن العالم، والحياة، وطبيعة الواقع، إذ يضفي على هذا الواقع أوهام الذات واستيهاماتها.

بنفاذه إلى عمق الفكر الميتافيزيكيّ، لا يكاد النقد النيتشويّ يختلف كثيراً، من حيث حوافزه ومراميه، عن صيغ النقد الكلاسيكيّ الذي يوجّه في المألوف إلى الميتافيزيك بمعناه المتداول في تاريخ الفلسفة، مذ ظهرت هذه العبارة أو المصطلح لدى شارحي أرسطو، ويتلخّص هذا المعنى في التأكيد على أنّ الميتافيزيك هو في جوهره تجاهل وابتعاد عن الواقع الحقيقي وتسامٍ إلى واقع آخر مختلف ووهميّ. يركّز الخطاب النقد النيتشويّ على هذا المضمون تحديداً عندما يحاول الكشف عن بنية الفكر الميتافيزيكيّ التي يماثلها في النهاية بالنموذج الفلسفيّ الأفلاطونيّ. فالميتافيزيك يتأسّس كلّه على نظريّة العالمين، عالم الظواهر وعالم الحقائق في ذاتها. بالنسبة إلى نيتشه، يتجاهل الميتافيزيك العالم الواقعيّ، الطبيعيّ، المحسوس، فيشيّد للإنسان عالماً آخر، مثاليّاً ووهميّاً تُخلع عليه جميع صفات الكمال، كالثبات والخير والخلود. ومن منظار هذا النقد، يبدو الميتافيزيك مجرّد هراء وهذيان فلسفيّ، والعالم الذي تتحدّث عنه عبارة عن عالم سرابيّ مليء بالأشباح.

الهدف من نقد الميتافيزيك، بحسب ما يُستشفّ من كتابات نيتشه الفلسفيّة، نزع الهالات الأسطوريّة عن صورة الإنسان مثلما رسمتها قرون عديدة من «الأكاذيب والأضاليل»، في تعبيره، وتبديد الأوهام حول طبيعة الوجود. فتلك الأساطير الفلسفيّة التي ساهمت في تثبيت أفكار إنكار الحياة وقتل الذات باسم قيم عليا مزعومة، أعطيت أصولاً سماويّة أحياناً وأصولاً أرضيّة أحياناً أخرى، وحوّلت الفلسفة إلى تاريخ لخضوع الإنسان. ونقرأ في ثنايا رفض نيتشه لها، ضمناً أو صراحةً، دعوة إلى تطابق الفكر من جديد مع الحياة في جبروتها وتناقضاتها ولاأخلاقيّاتها، بعيداً عن الأوهام الميتافيزيكيّة. وقد لا نقع في خطاب نقد الميتافيزيك لدى نيتشه على ما هو أبلغ من عبارته عن «موت الله» للإيفاء بالدلالة الجذريّة التي يروم إعطاءها لمشروعه النقديّ: إسقاط جميع «الأخرويّات» (الأفكار حول «الما بعد») وجميع العوالم الماورائية، ونسف جميع القيم والمثل العليا، خاصة تلك نشأت في فلسفة الأزمنة الحديثة: المنطق، العقل، الموضوعيّة، الفكر العلميّ، العلم ذاته، الثقافة، الاشتراكيّة، الديمقراطيّة... إلخ. يُعلن نقده عن تصدّع جميع الضمانات لإمكان تعقّل العالم ولمعقوليّته، وتشظّي جميع الحقائق، وتداعي سائر الهويّات وبينها بالطبع هويّة الإنسان التي أضحت مجرّد تعدّد وتشتّت واختلافات تختفي وراء وحدة وهميّة. وما عالمنا البشريّ، بثقافاته ومعارفه وعلومه، بتناقضاته وأحلامه وأوهامه، إلاّ نتاج للتأويلات التي تراكمت عبر تاريخ الفلسفة، والتي تخفي وراءها دوماً إرادة القوّة. عالمنا الإنسانيّ هذا محض تأويلات تطفو فوق خضمّ الوجود البلا قرار. وحده الوقوف عند هذه الحقيقة والاعتراف بها يمكن أن يساعدنا في نزع غشاوة التأويلات الميتافيزيكيّة في أعيننا، ويسّر علينا أن نكتشف في نهاية المطاف أنّنا تائهون في عالم لا تناسق فيه ولا انسجام بل هو «كلّه بشاعة وفوضى وعبث» على ما نقرأ في الفقرة 109 من كتاب نيتشه «العلم المرح».

هل يمكن العثور في هذه الآفاق العدمية التي تفتحها فلسفة نيتشه على مكان ما للنزعة الإنسانيّة؟ إنّ فلسفة نيتشه تعارض النزعة الإنسانيّة مثلما نفهمها، ليس لأنّها تشكّك في الأفكار والمبادئ التي تقوم عليها وتحرّكها فحسب، بل لأنها تعدّ أيضاً، وهذا أساسيّ، مصدراً لبثّ الفكر العدميّ، ومن غير المستغرب أنّها أضحت مرجعاً رئيسيّاً لأبرز تيّارات فلسفة «موت الإنسان» في الفكر المعاصر.

بيد أنّ نيتشه فشل، بحسب تأويل هايدغر لفلسفته، في القطع النهائيّ مع الجذور الميتافيزيكيّة، إذ لم يتحرّر تماماً من عادات التفكير في القيم، بل توهّم أنّ في الإمكان إنقاذ بعض القيم في النزعة العدميّة، فبعدما اعتبر قائمة القيم القديمة والحديثة لاغية، لم يلبث أن اقترح، ضمناً وبديلاً منها، قيماً أخرى لا تخرج مهما قيل عنها على دائرة فلسفة القيم، أي على ميدان الميتافيزيك. بقي نيتشه يعيّن الوجود في كلّيته ويفهمه من خلال «إرادة القوة»، كما حاول صوغ تصوّرات أخرى عن الحياة والعالم والحريّة والحقيقة، مقترحاً بالتالي تصوّراً جديداً لماهيّة الإنسان يُضاف إلى باقي التصوّرات التي أبدعتها النزعة الإنسانيّة. تظل فلسفة نيتشه إذن في نطاق الميتافيزيك، وإن كانت تعبّر عن «لحظة الانتقال من ميتافيزيك الفكر إلى ميتافيزيك الحياة»، في تعبير هايدغر أيضاً... (يتبع).

الشيخ محمد عبده يناقش فرح أنطون... وميشال جحا يقدّم ويجمع

مناظرات حول الدين والعلم بلغة العقل والتسامح

نظام مارديني

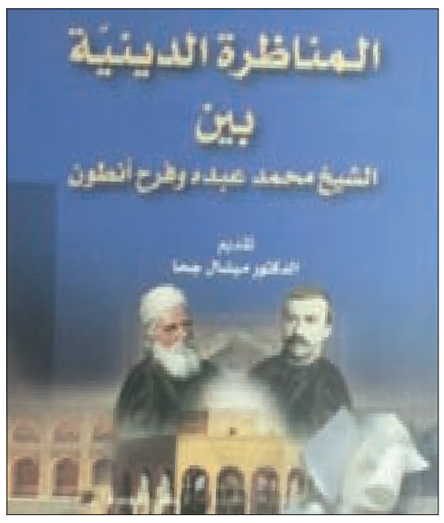

في السجال والصراع الدائرين بين الإسلاميين والعلمانيين، ثمة ما يبدو منطقة ضبابية تتعلق بالدين، وهي سبب سوء فهم أساسي، فالمشكلة الجوهرية ليست مع الدين. المعركة ضد الدين خاسرة منذ البداية. والمشكلة ليست مع فكر وسياسة وثقافة لا دينية في مجابهة فكر وسياسة وثقافة إيمانية أو دينية، إذ تبقى تجربة اللا يقين الديني، أو الانعتاق من الدين، تجربة نخبوية على الدوام، ولا يمكن أن تغدو ترياقاً شعبياً.

الصراعات الدينية التي تدور اليوم تبدو في جوهرها صراعات لعدم قبول المختلف، وتمزيق عرى التفاعل المشترك معه، ما يشير إلى أن بارانويا الاختلاف، أو الارتياب من المختلف، ستستمر في إفراز هورموناتها السامة في أرواحنا وعقولنا، وستبحث الجماعات داخل هوياتها الذاتية عن المختلفين لتصفيتهم وطردهم، ثم يبحث المتشابهون لاحقاً عن مختلفٍ آخر وهكذا. فالجدال حين يكون موضوعياً يفضي دوماً إلى دخول عوالم الحقيقة وفضاءاتها، ودخول فضاءات الحقيقة يعني ولوج رحاب الفلسفة، فالفلسفة هي أصلاً البحث عن الحقيقة.

هذه الرؤية هي مدخلنا إلى كتاب «المناظرة الدينية بين الشيخ محمد عبده وفرح أنطون» فالهدف الذي توخاه الباحث ميشال جحا بنشره المناظرة التي دارت قبل أكثر من قرن من الزمن (كانت المناظرة الأولى التي تنتمي إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، وكان بطلاها الإمام أبا حامد الغزالي والفيلسوف إبن رشد)، إعادة الاعتبار إلى لغة العقل في الحوار الذي يدور عادة بين مختلفين، أي السلطة المدنية الـ«مقرونة بالسلطة الدينية بحكم الشرع لأن الحاكم العام هو حاكم وخليفة معاً»، في مقابل الدعوة إلى «الفصل بين الدين والدنيا، لأن الجمع بين السلطتين يؤدي إلى ضعف الأمة». وهذا الحوار بين الإمام والمفكر كان «مثالاً ضرورياً لنا اليوم في الرقي الفكري والتسامح الديني» بحسب قول جحا في مقدمة الكتاب الذي صدر في 260 صفحة قطعاً وسطاً في منشورات دار «بيسان للنشر والتوزيع».

يشير جحا في بداية مقدمته (ص 5) إلى أن المناظرة جرت في جو من الحوار الحر تناول الإسلام والمسيحية «بينما بات تناول مثل هذا الموضوع اليوم «تابو»، أي من المحرمات والمحظورات»، ويرى في ختام المقدمة (ص 8) «إن مشكلة العلاقة بين العلم والدين أو بين العقل والإيمان، كانت وستبقى أسّ المشاكل التي تواجه الفلسفة الإسلامية، ونحن نعاني منها اليوم وسنظل، بينما استطاع الفكر الغربي أن يتخطاها ويتجاوزها»، متسائلاً: «هل سنجد نحن حلاً لها؟».

حملت فصول الكتاب العناوين الآتية: «مقدمة الدكتور ميشال جحا، الشيخ محمد عبده 1849 ـ 1905 مفتي الديار المصرية، وداع، فرح أنطون 1874 ـ 1924، المناظرة بين فرح أنطون والشيخ محمد عبده، 1 ـ رد الأستاذ الأول، جواب الجامعة الأول، 2 ـ رد الأستاذ الثاني، تمهيد للجامعة، جواب الجامعة الثاني، 3 ـ رد الأستاذ الثالث والرابع والخامس، جواب الجامعة على ما تقدم، ردّ الأستاذ الأخير، جواب الجامعة الأخير، خاتمة الأجوبة».

قصة المناظرة بدأت عندما كتب فرح أنطون عن فلسفة ابن رشد واضطهاده، وعن الموازنة بين إرهاب المسيحية وإرهاب الإسلام للمفكرين والمبدعين وراح ينشره في مجلة الجامعة واستمرت المناظرة بينه وبين الشيخ محمد عبده على صفحات المنار والجامعة من دون أن يطالب الإمام (وكان مفتي الجمهورية في ذلك الوقت) بمصادرة رأي فرح بل قارعه الحجة بالحجة والمقال بالدراسة المطولة، في حوار ينطق باحترام الشيخ للمثقف العلماني الذي يبشر بالعلم ويدعو إلى إنسانية جديدة واحترام المفكر لرجل الدين الذي يفتي بعلم ويجادل بالتي هي أحسن ولا يفرق في آداب الحوار بين مسلم وغير مسلم. ونشر فرح الحوار كاملاً في كتابه ابن رشد وفلسفته واحتل ثلثي الكتاب. وأهدى فرح أنطون كتابه إلى عقلاء الشرقيين في الإسلام والمسيحية، مؤكداً في الإهداء أنه يعرف أن الكثير من إخوته المسلمين والمسيحيين لا يوافقون على ما جاء فيه، لكنه لا يقول هنا بحتمية الصراع بين العلم والدين إنما يحترم من يقول إن الاختلاف في الرأي من طبيعة البشر، وإن احترام هذا الاختلاف هو بداية التقدم الذي لا يتحقق إلا عن طريق احترام حرية الفكر.

لم يشأ فرح أنطون بكتابه الوصول في فكره إلى معارضة العلم والعلماء للدين، ولكن في الكتاب فكرتان هما الكشف عن أخطار الاضطهاد الذي يعوق حرية الفكر من خلال دراسة ابن رشد والكشف عن جوانبها التنويرية، والكشف عن أضرار مزج الدين بالسياسة وإقرار مبدأ فصل الدين عن سياسة الدولة المدنية الحديثة.

في إطار هذين الهدفين كتب فرح عن الاضطهاد، وردّ عليه الإمام تفصيلاً. لكن فرح عاد فأوضح الكثير من أفكاره ففيها العلاقة بين العلم والدين، مستبدلاً محاولة ابن رشد القديمة في الوصل بين الحكمة والشريعة محاولته الحديثة في الفصل بين العلم والدين، على أساس أن العلم يجب أن يوضع في دائرة العقل لأن قواعده مبنية على التجربة. أما الدين فإنه في القلب، وقواعده مبنية على التسليم «وهنا يحاول فرح أن يفصل وليس أن يثبت تعارضاً أو محاولة أحد المجالين القضاء على الآخر».

ونشر الإمام تعقيباته ورودوده في ستة مقالات متتالية من «المنار»، وتوقف الإمام تفصيلاً عن علاقة الإسلام بالعلم تحديداً، موضحاً أنه لا يقف موقفاً عدائياً منه لأنه يحث عليه ولا يضطهد رجاله أو يحول بينهم وبين التقدم أو يحجر عليهم. ويؤكد الإمام ما طرحه طه حسين من حيث أن العلم والدين لن ينفي أحدهما الآخر إنما لكل منهما مجاله. وعن الضعف في كل منهما يقول إن سببه الجمود، فهو أساس ضعف المسلمين اليوم وأصل اضطهاد العلماء قديماً وحديثاً، وسبب الجمود هو السياسة والساسة فـ«السياسة تخاف خروج فكر واحد من حبس التقليد فينتشر عدواه فينتبه غافل آخر ويتبعه ثالث ثم ربما تسري العدوى من الدين إلى غير الدين إلى آخر ما يكون من حرية الفكر». هذه السياسة هي سياسة الظلمة وأهل الأثرة، روّجت ما أدخل على الدين ما لا يعرفه وسلبت المسلم أملاً كان يخترق به أطباق السماوات وأخلدت به إلى يأس يجاور به العجماوات.

الاختلاف بين البشر على مستوى الأفكار والتصوّرات ليس حالة سلبية، بل هو جزء من الناموس الكوني العام.

إن الاستقطاب الحاد الذي ينتجه الآن الصراع ذو الصبغة الطائفية في المنطقة يشكل ضغطاً كبيراً على المثقفين المتنورين، وقد يدفع بعض المثقفين الضجرين والمنزعجين من الممارسات السائدة في الحاضنة الاجتماعية لطائفتهم إلى طلب «لجوء فكري» لدى الطائفة الأخرى، تاركين عدّتهم النقدية العقلانية جانباً، ومتبنّين المسلّمات والكليشيهات الجاهزة لدى غلاة الجهة الأخرى.

فضاء حرّ

المثلّث الهجين جعجع والجربا ومارتن يوسف

■ جورج كرم*

هل سينال جعجع لقب رئيس الجمهورية اللبنانية؟ «طبعاً لا» تفور صفحات التواصل الاجتماعي غضباً واستهجاناً، بما يتضمن ذلك من رسوم كاريكاتورية تظهر جعجع معتمراً قلنسوة حاخام يهودي رمزاً إلى عمالة حزبه للعدو الصهيوني التاريخية، ومواقف على شكل «ستاتوسات» و«تغريدات» على «فيسبوك» و«تويتر» يعدّد فيها الناشطون جرائم جعجع وينشرون صوراً تذكيرية للرئيس الشهيد رشيد كرامي الذي اغتاله جعجع، وضحايا آخرين قضوا على يده مثل الياس الزايك وداني شمعون، والأخيران قضيا نحبهما على يدي جعجع في ما يشبه اليوم تصفيات «داعش» و«النصرة». واسودّت مانشيتات الصحف المحلية بكلمة «عار» بالخط العريض، معيّرة بعض نواب الأمة بأكثر الصفات درامية لمجرد ترشح جعجع وتأييد وصوله إلى سدة الرئاسة، كأن الفكرة آتية إلينا من المريخ. لكن وصول جعجع إلى سدة الرئاسة سيحصل، لو لاءمته الظروف، تماماً مثلما حدث إبان الاجتياح الصهيوني يوم وصل بشير الجميل إلى كرسي بعبدا بقوة دبابة المحتل وعلى وقع هزيمة القوات المشتركة للحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية، بعدما تخلت عنها دول الإقليم، رغم أن موظف تلفزيون «المستقبل» اليوم والمغني الملتزم بالأمس أحمد قعبور بحّ صوته وهو يصرخ قائلاً «أناديكم أشدّ على أياديكم» لمستمع إقليميّ لا يريد أن يصغي. خسرنا عسكرياً آنذاك في مرحلة أتت ببشير رئيساً للبلاد، واليوم قد نخسر سياسياً ونرى سمير متربعاً على كرسي بعبدا في ليلة «ما فيها ضوء قمر» لو وجدنا بقدرة دولار قادر أصواتاً كافية في العلبة الزجاجية في قاعة تخلو من الشفافية. فكفى تعجباً، و«لنقاتل» كما ورد في أغنية «عيترون» لخالد الهبر، والتحية له لأنه لم ينقل بندقيته من كتف إلى أخرى خلال العقدين الماضيين مثلما فعل مرسيل خليفة وأحمد قعبور! «فلنقاتل ولنقاتل ولنقاتل ولنقاتل» على ما جاء في الأغنية، كلّ منا وفقاً لقدراته وبكل ما أوتي من قوة، منعاً لكارثة وصول جعجع إلى سدّة الرئاسة، ما سيحوّل البلاد إلى أتون كلس ملتهب يقضي على كل ما بناه الحريري دولاراً في الخرسانة ودولاراً في الجيب بلمحة بصر، ما سيتطلّب حريرياً آخر بعد عقد أو عقدين «ليقترط» مليارات أخرى كي يعيد بناء البلد ويبطن جيبه بها في آن واحد.

وإن تكن تنقص جعجع شهادة في العمالة والاستزلام للعدو، أتته تهنئة بترشيحه من أحمد الجربا الموظف لدى آل سعود بلقب «رئيس الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية وضرّيب الكف في الاجتماعات الدورية» لتشهد له بذلك، ومن يهنئه الجربا يسقط إلى درك في العار لا سابق له، ولم لا يهنئ الجربا جعجع؟ وقد يكون الاثنان يتقاسمان كاتباً واحداً للخطب السياسية، الأول ينادي الغرب لتزويده السلاح النوعي لتدمير سورية التي يقال إنها بلده، وما زالت لدي علامات استفهام حول هذا الأمر، والآخر ينادي بإلغاء المقاومة في برنامجه الانتخابي محاولاً بذلك تسليم بلده إلى العدو في ظل شبح حرب أهلية هو العارف الأكبر بثناياها وتداعياتها والتواق الأكبر إليها. وجعجع «تألّق» قتلاً وذبحاً وإجراماً في حرب مدمرة قذرة قادتها فئة من الرجال بلا مبدأ أو عقيدة تنير طريقها سوى الوصولية والتعصب الديني والعنصرية، وما لبثت هذه الفئة أن فقدت وهجها ومركزها، وسرعان ما وضعت الحرب أوزارها وانتقل الصراع إلى صراع أفكار لا دور لها فيه، علماً أن الكائن البشري قادر على تفصيل فكرة مهما تكن سخيفة ومنبوذة من العاقل بيننا لتناسب مقاس أعماله مهما تكن دنيئة. والأمثلة على هذه الأفكار المفصّلة على مقاس العهر كثيرة، وحزت فرصة سماع بعضها بسبب اسمي الذي يدل على انتماء ديني معين يوم تقدم إليّ أحد ممثلي القوات في المهجر واقترح عليّ أن يعمل معي على «توحيد سورية من دون عنصر إسلامي» كما نظّر قائلاً يومذاك من دون أن يستشرف أن جعجع قائد عزه الطائفي سينادي بحكم «الإخوان» للمنطقة بعد عقدين من نظرية الأول الخنفشارية. وآخر قواتي أتى إلي حديثاً بفكرة توحيد معظم سورية الطبيعية تحت راية «داعش» وحماس و«النصرة»، لو «تخلصنا من حزب الله ونظام الأسد» بحسب قوله، وهاتان الفكرتان السخيفتان جديرتان بالذكر فحسب لقيمتهما الكوميدية لا أكثر، وللدلالة على أن الأعمى المتعصب قادر على قول أي شيء ليبرر مواقفه وأعماله. أما الفكرة الجدية لتبرير تسليم البلاد ومقدراتها إلى المستعمر وهي اليوم في حيز التنفيذ فهي فكرة الرئيس السنيورة وأعوانه «المستقبليين» التدميريين الذين وفروا الغطاء في ظل طغمة دولية ذات قطب واحد آنذاك لتأسيس محكمةٍ دولية لمحاكمة قاتلي الحريري تحت الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، ما يتيح للدول التدخل عسكرياً في شؤون دولة أخرى وندر اللجوء إلى الفصل السابع القرن الماضي، بيد أنه أضحى اليوم أداة في أيدي الأميركيين لاستعمار دول العالم العاصية على إرادتهم والتي قد تشكل خطراً على «كلبهم النّباح المربوط في الشرق الأوسط» أي العدوّ «الإسرائيلي». وباتت هذه المحكمة اليوم أوبرا معقدة تتغير وقائعها مع تغير الحاجات الدولية والمحكمة تلك التي بدأت باتهام سورية وعادت وحولت الاتهام إلى المقاومة في لبنان، ليس من المستبعد أن تعود إلى اتهام سورية مجدداً بعد فشل مؤامرات العقالات واللحى و«القرد» التركي عليها. وللمحكمة المهزلة ناطق اسمه مارتن يوسف، اسمه هجين وفعله منبوذ، أتى إلينا باتهام واستدعاء الصحافة والتلفزيون في لبنان للمثول أمام تلك المحكمة لنشرها معلومات صحيحة عما يدور في كواليسها.

ثنائي الجربا الهجين، السعودي السوري، وجعجع الهجين الصهيوني اللبناني، لم يكن ينقصه سوى مارتن يوسف الهجين المصري الكندي الإنترنسيوني، لإكمال مثلث الهجمة الدولية الفاشلة علينا في بلد مسخ من غرائب الدنيا تصح في وصفه أغنية الفنان المقاوم خالد الهبر «يا بن الأف... وتسعمية وتلاتة وأربعين».

* كاتب سوري من جبل لبنان موقعه على الإنترنت
www.gkaram.com

الموسيقيّ ريتشارد فاغنر... الأسطورة والملحمة ألهمتا إبداعه الخالد

1/2

كتب محمد زكريا توفيق: يقول الموسيقيّ الألماني الخالد شومان «علينا أن نستمع إلى الموسيقى الإيطالية وسط الإيطاليين. لكن الموسيقى الألمانية، يمكن أن نستمتع بها في أي مكان تحت الشمس».

فيلهم ريتشارد فاغنر، هو أصغر أخواته. ولد في «ليبسيك» عام 1813م. عندما كانت تدور رحى الحرب الطاحنة بين جند نابوليون والحلفاء الأوروبيين، وتوفى والده بسبب حمى كانت منتشرة في المدينة، وكان موظفاً حكومياً. أما الدته فكانت سيدة مدبرة، عاشت وأولادها الكثر بصعوبة من راتب حكومي متواضع. ابنها الأكبر لم يكن يتخطى سن الرابعة عشر. تزوجت من «غيير»، ممثل وكاتب ورسام، أثبت أنه زوج صالح وأب حقيقي للأم وأطفالها. وبسبب تأثير زوج الأم، أصبح عددا من الأبناء الكبار ممثلين مسرحيين، ما يعني أن ريتشارد فاغنر كان يسمع منذ نعومة أظافره الكثير عن المسرح.

كان زوج الأم مهتما أيضاً بالصغير ريتشارد، لكنه لم يكن يدري ماذا يفعل به، إذ كان «ريتشارد» طفلاً عصياً لا يستذكر دروسه، ولا يحب الرسم أو العزف على البيانو. بيد أنه كان يحب التنزه في الغابة برفقه زوج الأم «غيير» الذي كان يحبه حباً جماً. وكان يفضل أن يدعى «رتشارد غيير»، إلى أن بلغ عامه الحادي والعشرين.

كانت لـ«ريتشارد» هواية غريبة إذ كان يحب تأليف قصص العفاريت والأشباح وكانت تساعده أخته الغير شقيقة، «سيسيليا». ليلة بعد أخرى، جميع أنواع المخلوقات الشيطانية والعفاريت، كان يتخيلها تتكلم وتمثل. وأثناء مرض زوج الأم «غيير» الأخير، سُمع «ريتشارد» محاولاً العزف على البيانو. ثم خاطب زوجته متسائلا: «هل يمكن أن يكون ريتشارد موهوباً؟». وبعد وفاة «غيير»، كانت الأم تحاول تشجيع ابنها قائلة: «كان يحاول أن يجعل منك شيئا». لكن «ريتشارد» كان حالة مستعصية إذ لم يكن يجيد العزف على أي آلة موسيقية.

أرسل «ريتشارد فاغنر» إلى مدرسة في مدينة «درسدن» حيث مكث خمس سنوات. عندما انتقلت العائلة إلى «ليبسيك»، التحق بالجامعة هناك. كانت متعته دراسة «شكسبير» والتاريخ والأساطير القديمة والحضارة الإغريقية. وفي سن الثانية عشر، ترجم 12 جزءا من ملحمة «الأوديسة» للشاعر الإغريقي هوميروس، ألّف في الوقت نفسه مسرحية لافتة للنظر.

أثناء حوادث المسرحية، تموت عشرات الشخوص، إلاّ شخصية واحدة. ثم تعود لتظهر مثل أشباح شفافةفي الفصل الأخير. هذه التراجيديا حفزته على دراسة الموسيقى الهارمونية التي أعجبته كثيراً. أول اهتمام له بالموسيقى، أتاه عن طريق «ويبير». كان يعتقد «فاغنر» أن «ويبير» هو أعظم موسيقى على وجه الأرض، وأن أوبرا «دير فريشيتز» لـ«ويبير» هي أعظم الأوبرات.

بعد ذلك، استمع «فاغنر» إلى سيمفونيات «بيتهوفن». سيطرت موسيقى بيتهوفن على عقله وقلبه وأصبح مثله الأعلى. «بيتهوفن» جعل «فاغنر» يزهد في كل شئ، ما عدا موسيقاه.

تفرغ «فاغنر» لدراسة مؤلفات «بيتهوفن» الموسيقية. كان يدندن ويغني مقطوعاته ليل نهار. عندما بلغ سن الثامنة عشر، لم يكن أحد في سنه ملماً بأعمال الأستاذ العظيم «بيتهوفن»، مثله هو. لم يكن «فاغنر» محبا للحياة الدراسية والتلمذة التقليدية. مع الوقت، بدأ فكره يتحول إلى عالم الموسيقى. إليها كان المنتهى والدراسة الجادة، لمعرفة أصولها وأسرارها وخباياها. والحفلات الموسيقية التي كانت تقام في مدينة «ليبسيك» ساعدته كثيرا. أتاحت له فرصة التركيز على الأوركسترا، وكيفية قيادتها. أول عمل موسيقي له كان مكتوباً لتعزفه أوركسترا كبيرة. ولما قُدّم العمل على المسرح للمرة الأولى، قوبل بصيحات الحاضرين وقهقهاتهم. فَالموسيقى كانت مليئة بضربات الطبول والإيقاعات المرتفعة المستمرة.

لكي يعول «فاغنر» نفسه، كان يتجول بين المدن المختلفة وفي بعض الأحيان كان يترأس الجوقات الغنائية وفي أحيان أخرى كان يكتب الأوبرات التي لم تكتب لها الشهرة.

في هذه الأثناء، قابل تحت ضوء الشموع الخافتة ممثلة مغمورة اسمها «ويلهلمينا بلانر». ثم تسللا معاً في ضوء القمر ليعقدا قرانهما. لم تكن ممثلة موهوبة وكانت زوجة عادية. كان «فاغنر» يدافع عنها قائلا: «إنها تحيا حياتها وتفعل ما في وسعها. تعبّر عما يجول بخاطرها. فماذا نستطيع أن نفعل؟».

وجد «فاغنر» وزوجته وظيفتين في مسرح «ريغا». هناك كتب أول أعماله المهمة «رينزي». كان شغوفاً بقراءة قصة الأديب «لايتون» «رينزي». وهي قصة تدور حوادثها في القرن الرابع عشر. بطل القصة «رينزي»، عالم حالم حاول إيقاظ شعبه، ليحرّر روما من قبضة نبلائها الطواغيت العتاة. كتب جزءاً من لحنها في مدينة «ريغا». عندما تيقن أن الأوبرا تستحق الإنتاج أخذها إلى باريس ليعرضها هناك. لذلك أبحر مع وزوجته وكلبه الضخم متوجهين إلى لندن.

يبدو أن بحر الشمال كان فقد السيطرة على أعصابه، إذ واجهوا عاصفة عاتية كادت تدمر المركب. أثناء الرحلة، كان البحارة يرفهون عن الركاب ويقصون عليهم حكاية «الهولندي الطائر» الذي كان يصر على الإبحار عن طريق رأس الرجاء الصالح مهما تكن الأخطار والصعاب. أخبر البحارة «فاغنر»، كيف نُسجت لعنة مدمرة حول الهولندي الطائر، بسبب تجديفه وسبه لروح المحيط الشرسة الشريرة. قد حُكم عليه بأن يظل هائماً على وجهه إلى الأبد من دون هادٍ أو معين، إلى أن يجد امرأة، تخلص لحبيبها حتى الممات.

لكي يجدها، سمح له بأن يرسو بسفينته على البر مرة كل سبع سنوات. بعد الفشل عدة مرات، قابل كابتن نرويجي فقير، كان مستعداً لبيع ابنته «سينتا». منحت «سينتا» حبها كلّه للهولندي الطائر، وأخلصت له على الدوام. فأبطل حبها وإخلاصها الخالد، اللعنة المسبوغة على الهولندي. غرقت السفينة المعلونة، ونجا الحبيبان إلى الأبد. كان ظهر السفينة التي يستقلّها فاغنر وزوجته وكلبه خير مكان يمكن أن يسمع فيه مثل هذه الحكايات. لكن الأسطورة والموسيقى المرافقة لها كان لهما تأثير طاغٍ في «فاغنر».

بعد هذه الرحل العاصفة، التي استمرت ثلاث أسابيع، وصلوا إلى لندن. ثم أبحروا ثانية إلى «بولونيا». هناك، قابلوا «ميربير»، مؤلف الأوبرا المشهور. فعرض فاغنر نوطة أوبرا «رينزي» الموسيقية عليه. وأظهر «ميربير» اهتماماً بالأوبرا، ثم أعطى «فاغنر» بعض التعليمات التي يمكن أن تساعده في باريس. لكن لخيبة أمل «فاغنر الكبيرة»، عندما وصل إلى المدينة الكبيرة، لم يجد من يقبل إنتاج الأوبرا وعرضها. خلال السنوات الثلاث سنوات التي أمضاها فاغنر هناك، لم يجد فاغنر مساعدة تستحق الذكر من الباريسيين. كان يسكن في كوخ صغير في أحد أحياء باريس وكان يؤجر بيانو. خلال سبعة أسابيع أتم «فاغنر» تلحين أوبرا «الهولندي الطائر». وطعمها ببعض أغاني البحارة التي سمعها أثناء رحلته.

ألّف «فاغنر» أعمالا موسيقية أخرى، منها «الغازيت»، وكان يفعل ما في وسعه لكي يقيم أوده. لكنه كان يحصل على القليل لقاء جهوده تلك. وبعدما تملكه اليأس وخيبة الرجاء، قرر مغادرة باريس. في هذه الأثناء، جاءته الأخبار بأن أوبرا «رينزي» لاقت قبولاً في مدينة «درسدن». عاد مسرعاً إلى بلاده لكي يساعد في إخراجها للمسرح. أخرجت «رينزي» بطريقة عظيمة وقوبلت بحماسة شديدة شديد. أخيراً، بعد جهد شاق ومعاناة عظيمة، سمح لفاغنر بأن يستمتع قليلاً بأول ثمار للنجاح. عيّن فاغنر قائد أوبرا في «درسدن». هناك، عرض أوبرا عقب أوبرا من تأليف موسيقيين آخرين. بعضها كان من تأليفه هو مثل أوبرا «الهولندي الطائر». التي لم تستقبل بحفاوة مثل قرينتها أوبرا «رينزي»، لأن في «الهولندي الطائر» أصالة ممكناً استيعابها وتقديرها من الوهلة الأولى.

أوبرا «تانهويزر»، كانت التالية في أعمال «فاغنر» على المسرح. القصة تتمركز حول مباراة في الأغاني أقيمت في قلعة «وارتبورغ» أيام زمان. الجائزة هي يد «القديسة إليزابث». كان الفائز هو «تانهويزر». بعد ذلك مباشرة اختفى ثم ذهب للحج. موسيقى «المارش» في الأوبرا التي تصور موكب الحجاج، وصلوات «القديسة إليزابث» سحرت المستمعين منذ ذلك الحين وإلى وقتنا هذا.

هذه الأوبرا تنبأت بظهور مؤلف موسيقي عظيم. لكن «الهولندي الطائر» لم تكن مفهومة. الذين اشتركوا في عرضها كانوا يقولون أن ألحانها صعبة الغناء.

فشل «الهولندي الطائر» كان ضربة قاصمة لفاغنر. عندما أكمل أوبرا «لوهنغرين»، الفارس المتخفي في صورة بجعة، الذي ينقذ «إليز» من الوصي الشرير، لم يكن لها مكان للعرض على المسرح. اليوم هي أشهر أوبرات «فاغنر».

أثناء وجود «فاغنر» في «درسدن» جاء «سبونتيني» لعرض أوبرا «لا فيستالي» من تأليفه. سرعان ما تعارفا وأصبحا صديقين حميمين. نصح «سبونتيني» «فاغنر»، بترك التأليف الموسيقي الأوبرالي. كانت تبدو نصيحة جيدة في ذلك الحين، لكن لحسن حظ عشاق الموسيقى الكلاسيكية اليوم، لم يأخذ «فاغنر» بهذه النصيحة.

لم نسمع الكثير عن «فاغنر» في السنوات التي تلت تلك النصيحة الهباب إذ كان ثائراً سياسياً، ومتمرداً على الأوضاع الدينية. أثناء قلاقل عامي 1847 و1848م، كانت خطبه النارية تدفع السلطات للقبض عليه. لذلك كان عليه الهرب من ألمانيا.

ظل هارباً خارج ألمانيا عدة سنوات. معظم الأوقات، كان موجوداً في سويسرا. تلك الفترة من حياته كانت تسمى فترة الحرية. كان يدرس ويكتب المقالات في مواضيع مختلفة. كان أيضاً يؤلف الموسيقى، منها عمله العملاق «خاتم نيوبلونغز» أو «خاتم اللورد» أو «الخاتم». كان الألمان فخورين بهذا العمل الضخم، «خاتم نيوبلونغز»، مثلما كان الإغريق فخورين بالإليازة والأوديسة للشاعر هوميروس، إذ كانت مليئة بقصص الأبطال الألمان، بينهم الفارس «سيغفريد» و«برونهيلدي». وتتألف «خاتم نيوبلونغز» تتكون من أربع أوبرات هي «ذهب الراين»، «فالكيري»، «سيغفريد»، «شفق الآلهة».

يتبع جزء ثانٍ